(٢٧)

مذهب أبي الحسن في الصفات الخبرية

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين. قال الإمام المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية:

ثم قال بعد ذلك: ((**وقال الأشعري أيضًا في «اختلاف أهل القبلة في العرش»:«قال أهل السنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم ولا يشبه الأشياء، وأنه استوى على العرش كما قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥]، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول؛ [بل] نقول: استوى بلا كيف، وأن له وجهًا، كما قال تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:٢٧]، وأن له يدين كما قال تعالى: {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:٧٥]، وأن له عينين كما قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر:١٤]، وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر:٢٢]، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء في الحديث، ولم يقولوا شيئًا إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.وقالت المعتزلة: إن الله استوى على العرش بمعنى: استولى وذكر مقالات أخرى.**))

قد صدق رحمه الله في حكاية مذهب أهل السنة والجماعة وأنهم كل ما جاء عن الله تعالى أو النبي ﷺ أخذوا به. تأمل قوله ((**ولم يقولوا شيئًا إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم**)) وهذا هو منهج السلامة والعلم والحكمة أن يكتفي الإنسان بما رضيه الله تعالى لعباده ولا يتجاوز فيغلوا ولا يقصر فيجفوا. بل فيما ذكر غنية وكفاية ومقنع لكل عاقل. ثم تأمل قوله ((**وقالت المعتزلة استوى على العرش بمعنى استولى**)) أرأيت؟ الآن عامة الأشاعرة يقولون أن استوى بمعنى استولى. وهذا إمامهم ينسب هذه المقالة للمعتزلة ويبرأ منها لكن إلى الله المشتكى. كان ينبغي لمن عظمه واتبعه وأحسن الظن به أن يأخذ بما انتهى إليه علمه وخبرته، فهذا هو آخر ما قاله.

ثم قال: ((**وقال أيضًا أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه «الإبانة في أصول الديانة» وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه، وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه. فقال: «فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة».**

فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والحرورية، والرافضة، والمرجئة؛ فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكلام ربنا وسنة نبينا، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل . نضَّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته . قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل؛ الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلالة، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكّين؛ فرحمة الله عليه من [إمام مقدَّم]، [وجليل معظَّم، وكبير مفهّم]. وجملة قولنا: أنّا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاؤوا به من عند الله، وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نرد من ذلك شيئًا؛ وأن الله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد لم يتخذ صاحبة

ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق؛ وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وأن الله مستوٍ على عرشه كما قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥]، وأن له وجهًا كما قال تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:٢٧]، وأن له يدين بلا كيف، كما قال تعالى: {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:٧٥]، وكما قال تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء} [المائدة:٦٤]، وأن له عينين بلا كيف، كما قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر:١٤]. وأن مَنْ زعم [أن] أسماء الله غيره كان ضالًا، وذكر نحوًا مما ذكر في الفرق، إلى أن قال: ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيمانًا، وندين بأن الله يقلب القلوب بين إصبعين من أصابع الله عز وجل وأنه عز وجل يضع السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، كما جاءت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.إلى أن قال: والإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة [عن رسول الله صلى الله عليه وسلم] التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.إلى أن قال: ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول: «هل من سائل؟ هل من مستغفر؟» وسائر ما نقلوه وأثبتوه، خلافًا لما قال أهل الزيغ والتضليل. ونعوّل فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا، وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا به، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونقول: إن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر:٢٢].وأن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق:١٦]، وكما قال: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى • فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم:٩،٨].إلى أن قال: وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقي مما لم نذكره بابًا بابًا))

هذا الكلام فيه نفس السلف من إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له نبيه ﷺ وسار على سنن السلف المتقدمين ، وأكد بين فقرة وفقرة في التعويل على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في كلام حسن جميل لا مزيد عليه. وليت الأشاعرة يرجعون لهذه النصوص ويعتمدوها ويطرحوا ما سواها ويعتمدوها منهجًا فإن هذا هو الحق الذي عليه أنوار النبوة وبهجة الكتاب والسنة وسمت السلف الصالح. هذا الذي تقارن بينه وبين ما كتبه الأشعري في بعض كتبه الكلامية تجد الفرق البين بين هذا النفس الإيماني المطمئن الواضح الجلي وبين ذلك الغبش والضبابية والعسر في الكلمات والتراكيب. فرق بين هذا وهذا. وهو رحمه الله قد ذكر مسألة القرب فيما مضى وهاهنا. والصحيح في هذه المسألة . وإن كان الخلاف فيها محفوظًا . أن القرب من الله إنما هو القرب بملائكته. كما أنه أيضًا قال هنا استدل بقوله تعالى {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)} وأيضًا الخلاف في هذا محفوظ وأن الذي يترجح أن هذا جبريل عليه السلام حينما أتى النبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)}أي أوحى جبريل لعبد الله محمد ما أوحى. أو فأوحى الله تعالى لعبده محمد ﷺ ما أوحى. لكن حمل أو إسناد الأفعال كلها لجبريل هذا أرجح في نسق الكلام. دنى – تدلى – أوحى. فتكون كلها مسندة لجبريل ولا شك أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله تعالى. فالمهم هو أن الإثبات واضح عند الشيخ رحمه الله وإذا ذكر الصفات الخبرية يقول بلا كيف. وكما نبهناكم آنفًا أنه لا يحتاج لنفي الكيفية إلا من يثبت أصل المعنى. من لا يثبت معنى حقيقيا لا يحتاج أن يقول بلا كيف. فإن من يقول بلا كيف فهو من يحذر أن يغالي الإنسان في الإثبات لدرجة

التمثيل. فلما أثبت اليدين والعينين احترز أن يفهم فاهم أن ذلك على ما هو معهود لدى السامعين فلهذا قال بلا كيف وهذا مراده رحمه الله بقوله بلا كيف هاهنا.

فهذا الكلام كلام طيب من جنس كلام السلف في عقائدهم ووصاياهم.

((ثم تكلم على أن الله يُرى، واستدل على ذلك، ثم تكلم على أن القرآن غير مخلوق، واستدل على ذلك، ثم تكلم على من وقف في القرآن وقال: لا أقول: إنه مخلوق، ولا غير مخلوق ورد عليه.

[قول الأشعري في الاستواء على العرش]:

ثم قال: «باب في ذكر الاستواء على العرش». فقال: إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إن الله مستوٍ على عرشه كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥]، وقد قال الله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:١٠]، وقال: {بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ} [النساء:١٥٨]، وقال: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} [السجدة:٥]، وقال تعالى حكاية عن فرعون: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ • أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر:٣٦-٣٧] كذّب موسى في قوله: إن الله فوق السماوات، وقال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ} [الملك:١٦]، فالسماوات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السماوات قال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، فكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} يعني جميع السماء، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى أن الله عز وجل ذكر السماوات فقال: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [نوح:١٦] فلم يرد أن القمر يملؤهن، وأنه فيهن جميعًا.ورأينا المسلمين جميعًا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله على العرش الذي فوق السماوات، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.))..

هذا التقرير لصفة الاستواء تقرير بين واضح واستدل بما استدل به السلف من آيات ووجهها ومن دلالة الأحاديث ودلالة الفطرة من توجه الناس بقلوبهم وأيديهم للعلو في دعائهم لربهم عز وجل وكذلك أيضًا في توجيه معنى السماء فإنها إما أن تكون السماوات المبنية فتكون بمعنى على وحروف الجر تتناوب كما ذكرنا مرارًا وإما أن يراد بالسماء الظرف يعني العلو فتكون في على أصل وضعها دالة على الظرفية والمقصود أن كلامه في الاستواء موافق تمامًا لمذهب السلف الصالح مخالف لما يتناقله المنتسبون إليه في منظوماتهم وشروحاتهم في نفي الاستواء.

ثم قال ((**فصلٌ: وقد قال قائلون من المعتزلة، والجهمية، والحرورية: إن معنى قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥] أنه استولى وملك وقهر، وأن الله عز وجل في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، فلو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة، لأن الله قادر على كل شيء. والأرض فالله قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله مستويًا على العرش بمعنى الاستيلاء . وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها . لكان مستويًا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها، وإذا كان قادرًا على الأشياء كلها، ولم يجز عند أحد من**

المسلمين أن يقول: إن الله مستوٍ على الحشوش والأخلية، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش بمعنى: الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل

إذن هذه القطعة في نقد قول من حرف الاستواء للاستيلاء وقد ذكر اللوازم الباطلة التي تلزم من قال بهذا القول. ومدارها على أن من زعم أن الاستواء بمعنى الاستيلاء لزمه أن يضيف هذه الصفة إلى كل شيء. وأن يكون تعالى ذكره وتقدس قد استوى على الحشوش والأماكن القذرة والشجر والحجر وغير ذلك. وأنه لا معنى لتخصيص العرش عن غيره إن كان الاستواء بمعنى الاستيلاء. فلولا أن للاستواء معنى خاص تميز به العرش واختص به وإلا لما كان لذكر العرش فائدة في سبعة مواضع من القرآن العظيم. فقد استعمل الدليل العقلي في نقد هذه الشبهات.

والأدلة التي ذكرها الأشعري يذكرها جمع من السلف قد ذكرها من المتقدمين الدارمي رحمه الله في رده على بشر المريسي. فلم يزل السلف ينقل بعضهم عن بعض في هذا وربما انقدح لبعضهم ما انقدح لمن سبقه فيكون من توارد الأفكار.

ثم قال: «**باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين**».

[مذهب أبي الحسن في الصفات الخبرية]:

وذكر الآيات في ذلك، ورد على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته: مثل قوله: فإن سئلنا: أتقولون لله يدان؟.قيل: نقول ذلك، وقد دل عليه قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:٧٥]، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله مسح ظهر آدم بيده، فاستخرج منه ذريته» وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده». وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيديّ، ويريد بها النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهومًا من كلامها، ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيديّ، ويعني به النعمة، بطل أن يكون معنى قوله تعالى: {بِيَدَيَّ} النعمة. وذكر كلامًا طويلًا في تقرير هذا ونحوه»..))

هذا أيضًا متعلق بالصفات الخبرية. الاستواء يتعلق بالصفات الفعلية.. ثم ذكر هذا الفصل في الصفات الخبرية كصفة اليدين وأثبتهما من النصوص وذكر الحديث إن الله مسح ظهر آدم بيده وهذا حديث حسنه بعض أهل العلم وضعفه آخرون والآيات تغني عنه {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]والأحاديث الصحيحة التي وردت في ذكر اليدين. ثم رد على زعم من زعم أن اليد مراد بها النعمة أو القدرة. وقال أن هذا لا تسيغه لغة العرب أن يقال {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} يعني بقدرتي أو نعمتي. هذا ممتنع. ولا يمكن أن يأتي بصيغة التثنية. قال: ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل عملت كذا بيدي ويريد به النعمة". والله تعالى خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهومًا من كلامها ومعقولاً من خطابها. حتى على تقدير القول بالمجاز وأن اليد تأتي بمعنى النعمة كقولهم لفلان يد علي فإن لا يمكن الصيرورة للمعنى المجازي إلا عند امتناع الحمل على المعنى الحقيقي. فالأصل في الكلام الحقيقة ولا يصار لحمله على المجاز إلا للامتناع. وهو ما يسميه البلاغيون القرينة. وهنا لو سئل ما القرينة التي تحملكم على نقل الكلام

من الحقيقة للمجاز؟ لقالوا لامتناع ذلك في حق الله تعالى لأنه يترتب عليه التشبيه. قلنا هذا وهم توهمتموه فإن هذا اللازم الذي سبق لأذهانكم ليس بلازم فإن اليد المضافة لله تعالى ليس كاليد المضافة للمخلوق. فكما تثبتون سمعًا وبصرًا له ﷻ يليق به فأثبتوا يدين وعينين تليقان به. فالمتكلم بهذا هو المتكلم بهذا. فلله ما يليق به وللمخلوق ما يليق به فبطلت حينئذ القرينة التي ادعيتموها قرية ولزم إجراء الكلام على حقيقته وعدم القول بالمجاز.

((وقال القاضي أبو بكر «محمد بن الطيب [الباقلاني] المتكلم» ـ وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده . قال في كتاب «الإبانة» تصنيفه: «فإن قال: فما الدليل على أن لله وجهًا ويدًا؟ قيل له: قوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:٢٧]، وقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:٧٥] فأثبت لنفسه وجهًا ويدًا. فإن قال: فلم أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجهًا ويدًا إلا جارحة؟.قلنا: لا يجب هذا كما لا يجب إذ لم نعقل حيًا عالمًا قادرًا إلا جسمًا أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه، وكما لا يجب في كل شيء كان قائمًا بذاته أن يكون جوهرًا، لأنا لا نجد قائمًا بنفسه في شاهدنا إلا كذلك، وكذلك الجواب لهم، إن قالوا: فيجب أن يكون علمه وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفاته عرضًا واعتلوا بالوجود.قال: فإن قال: تقولون: إنه في كل مكان؟قيل له: معاذ الله؛ بل هو مستوٍ على العرش كما أخبر في كتابه فقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥]، وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:١٠]، وقال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [الملك:١٦].قال: ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان وفمه، والحشوش، والمواضع التي يرغب عن ذكرها، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا وإلى يميننا وإلى شمالنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله.وقال أيضًا في هذا الكتاب: صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفًا بها، وهي الحياة، والعلم والقدرة، والسمع والبصر، والكلام، والإرادة والبقاء، والوجه، والعينان، واليدان، والغضب، والرضا».))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ.

انتقل شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله بعد ذكره لمقالة أبي الحسن الأشعري لذكر كلام أكبر متابعيه، وهو أبو بكر الباقلاني رحمه الله. وهو محمد بن الطيب الباقلاني. ويعد كما قال شيخ الإسلام رحمه الله أفضل المتكلمين المنتسبين للأشعري. وقد كان ذكيًا ألمعيًا رحمه الله. وكان يبعث في السفارات. حتى بعثه أحد الخلفاء لملك الروم. وكان من ذكائه أنه لما أقبل على مجلسه كان لا يدخل إليه إلا من باب صغير يضطر الإنسان فيه لأن يدخل حانيًا جزعه ليبدو في هيئة الركوع لهذا الملك. فتنبه رحمه الله لهذا الأمر فدخل بقفاه. يعني رجع القهقري. فهم أرادوا إهانته فأهانهم. ثم دخل فسلم على الملك وحياه بما يليق به من تحية وجرى بينهما مناظرة أو حديث عجيب. حتى قيل في مجلسه هذا أنه قال لبعض الأساقفة: كيف زوجك وكيف أبوك وأمك؟ فغضب ذلك الأسقف وقال كيف تقول زوج؟ نحن لا نتزوج – يعني الأساقفة. قال فكيف تدعون لله الولد ونحو ذلك – يعني تنزهون أنفسكم عن الزوج وتدعونه لله ﷻ.. إلى غير ذلك في مناظرة محفوظة. والمقصود أنه كان من أذكياء الناس وفقهاء المذهب

المالكي. بل هو من كبار المذهب المالكي. وهذا أحد سببين يفسران لنا سبب فشو المذهب الأشعري بين المالكية. السبب الأول هو انتماء ابن تومرت لمذهب الأشعري. فإن ابن تومرت الذي كان بأرض المغرب قد تتلمذ على علماء الأشاعرة وبالذت على الغزالي وألف مصنفًا في هذا صاروا يتداولونه ويحملون الناس عليه. فقد كان في بلاد المغرب دولة الموحدين فحملت الناس حملاً شديدًا على الأخذ بمذهب ابن تومرت الذي كان على طريقة الأشعري. والسبب الثاني أن أبا بكر الباقلاني رحمه الله كان على مذهب الأشعري ومن كبار ومتقدمي المالكية وكانت وفاته رحمه الله في مطلع القرن الخامس سنة ٤٠٣هـ. وهذا النص بين أيدينا يدل على أن أبا بكر الباقلاني رحمه الله أثبت الصفات الخبرية بل الصفات الفعلية. فإنه أثبت الوجه واليدين ونافح عن إثباتهما على وجه الحقيقة فإنه لما أثبتهما أورد سؤالا من خصومه يقولون فيه: ما دمتم تثبتون الوجه واليدين فلم تمتنعون أن تثبتوها على صفة الجوارح، يعني ما هو معهود عن الآدميين؟ فأبى ذلك رحمه الله وقال هذا ليس بلازم، فكما تثبتون أنتم له من الصفات، يقول: لا يجب هذا كما لا يجب إذا لم تعقل حيًا عالمًا قادرًا إلا جسمًا أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله ﷻ فأنتم أيها النافون لصفة الوجه واليدين تثبتون الله حيًا عالمًا قادرًا حكيمًا مع أن هذه الأوصاف تضاف للمخلوقين ولم يلزم من ذلك أن يكون الله ﷻ جسمًا بمعنى أنه كأجسام المخلوقين. فكما تثبتون وتعقلون هذا في حق الله دون أن يلزم أن يكون ذلك جسمًا على مفهومكم فأثبتوا له يدين وعينين وسائر ما أثبته لنفسه دون أن يلزم من ذلك وصف الجسمية أو غير ذلك من اللوازم التي تدعونها. وكذا قال في مسألة الجوهر أنه لا يلزم أن يكون الله ﷻ جوهرًا. والجوهر عند المتكلمين هو ما لا ينقسم عندهم تعريفات للجوهر والعرض وأن هذا لا ينسحب على الله ﷻ. بمعنى أن الله ﷻ ليس كمثله شيء. وقال كلامًا حسنًا ثم ثنى بذكر الاستواء وأثبته إثباتًا حقيقيًا واستعاذ بالله أن يكون الله تعالى في كل مكان.

والواقع أيها الكرام وأيتها الكريمات ومن بلغ أن العجب لا ينقضي من الأشاعرة كيف يجدون هذا الكلام البين الصريح عند مؤسس مذهبه الأول الأشعري، وعند مؤسس المذهب الثاني وهو الباقلاني من الإثبات الصريح ودفع التأويل والتحريف ثم يسيرون على غير طريقتهم ويتابعون المتأخرين منهم. هذا من العجب. ثم تأملوا في النقل الأخير قال في هذا الكتاب المشار إليه آنفًا ((**صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفًا بها**)) يعني صفات ذاتية لم يزل ولا يزال. وعد ماذا؟ لم يقتصر على الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة بل أضاف إليها الصفات الخبرية فقال الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة. هذه هي الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة ويسمونها الصفات المعنوية. ثم أضاف إليها البقاء والوجه والعينان واليدان والغضب والرضا. بمعنى أنه استوعب جميع الصفات الذاتية والفعلية والخبرية.

فهذا يدل على أنه في كلامه قد وافق طريقة السلف.

ثم قال ((**وقال في كتاب «التمهيد» كلامًا أكثر من هذا، وكلامه كلام غيره من المتكلمين في هذا الباب مثل هذا كثير لمن يطلبه، وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام.وملاك الأمر أن يهب الله للعبد حكمة وإيمانًا بحيث يكون له عقل ودين، حتى يفهم ويدين، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء؛ ولكن كثير من الناس قد صار منتسبًا إلى بعض طوائف المتكلمين، ومحسنًا للظن بهم دون غيرهم، ومتوهمًا أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتى بشيء من كلامهم**))

في هذه القطعة كلام نفيس ينبغي لطالب العلم أن يتأمله وأن يسأل الله ﷻ أن يهبه إياه. قال **ملاك الأمر** يعني سبب التوفيق والهدى **أن يهب الله للعبد حكمة وإيمانًا** بحيث يكون له عقل ودين. هذان العنصران إذا اجتمعا في شخص سدد ووفق. فإن من الناس من يكون عنده دين لكن قد يقصر عقله عن الإدراك، ومن الناس من يكون له عقل وذكاء وفطنة لكن ليس عنده دين يردعه. فإذا اجتمع العقل والدين كان الكمال. فإذا وهب الله تعالى حكمة أي عقل يحكم بها الأمور ويحسن بها إدراك الأشياء وتصورها تصورًا رائقًا صحيحًا وكان معه دين وهو نور من الله ﷻ يبصره بالأشياء كما قال ﷻ {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٢] فإن القلب معشر طلبة العلم يتأثر بالمؤثرات الخارجية. فإن كان القلب معمورًا بخشية الله ومحبته اتضحت له الأمور وزالت الغشاوة عن العينين والوقر عن الأذنين والأكنة عن القلوب وأبصر الأشياء بنور الله تعالى وهدي لإدراك المراد من أول وهلة. فالذي يرزق ورعًا وتقى ويهبه الله ﷻ آلة من العقل والحكمة يصيب كبد الحقيقة ويهدى إليها دون إطالة الطريق. وإنما آفة المتكلمين كما قال شيخ الإسلام رحمه الله أنهم أوتوا عقولاً ولم يؤتوا فهومًا وأوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً. ولذلك كان يقول وربما يأتي في كلامه هاهنا أو غيره أننا ننظر لهؤلاء المتكلمين بعين القدر وعين الشرع. فإذا نظرنا إليهم بعين القدر وفينا لهم. وأسفنا لهم أن كان هذا قسم الله لهم. وإذا نظرنا لهم بعين الشرع لزم أن نشنع عليهم وأن نرد باطلهم وأن نكشف زيفهم لأنهم أرادوا حرف الملة. فهذا كلام ينبغي لطالب العلم دومًا أن يتوسل إلى الله تعالى أن يهديه سوء السبيل وأن يريه الحق حقًا وأن يرزقه اتباعه وأن يريه الباطل باطلاً وأن يرزقه اجتنابه وأن يقول يا معلم إبراهيم علمني ويا مفهم سليمان فهمني، ويلح على الله ﷻ بهذا ويكثر من الدعاء والاستغفار. قال ابن تيمية رحمه الله إن كانت المسألة لتشكل علي فلا أزال أذكر الله واستغفر الله حتى يتجلى لي الأمر. فهذا مما تنصع به القلوب وتنقى وتتضح به الرؤية ويهدى به العبد. فكأن شيخ الإسلام رحمه الله يعتذر عن سبب إيراده لكلام جملة من هؤلاء المتكلمين. لم ساق كلامهم؟ بين السبب الحامل على ذلك وسوف يزيده بيانًا، قال **ولكن كثير من الناس قد صار منتسبًا لبعض طوائف المتكلمين** كالأشعرية الماتوريدية والكلابية وغير ذلك **ومحسنًا للظن بهم دون غيرهم، ومتوهمًا أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم. فلو أوتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم** كأنما يقول أنما سقت ما سقت من الحق الذي نطق به معظموهم ليكون هذا أدعى لقبول الحق. لا أنه تزكية مطلقة لهؤلاء فإنهم قد غلطوا في أشياء كثيرة لكنه ساق الحق الذي نطقوا به؛ ليكون مدعاة لقبول الحق من أتباعهم الذين يعظمونهم.

((ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم، فلو أنهم أخذوا بالهدى، الذي يجدونه في كلام أسلافهم لرُجي لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هدى، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ثم لا يتمسك بما جاءت به من الحق، ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [البقرة:٩١].فإن اليهود قالوا: لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا. قال الله لهم: فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم، يقول سبحانه: لا ما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون، [ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون]. ولكن إنما تتبعون أهواءكم، فهذا حال من لم يتبع الحق، لا من طائفته ولا من غيرهم، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان.))

هذا المعنى هو الذي ذكره آنفًا أن متأخري الأشاعرة لم يرفعوا رأسًا بما انتهى إليه اجتهاد متقدميهم. فهذا أبو الحسن وهذا أبو بكر محمد بن الطيب وكلهم يؤولون ويرجعون لمقالة السلف. فهم ينتسبون إليهم ثم هم لا يقبلون الحق الذي نطق به هؤلاء فهذا من العجب. وهو موضع من المواضع التي ذكرت لكم أن شيخ الإسلام يحسن التنظير فيها وينبغي أن تضم مع أمثالها حيث نظر حال هؤلاء المتكلمين بحال اليهود الذين يردون ما جاء به محمد ﷺ ويتذرعون بأنهم إنما يتبعون ما جاءت به أنبياؤهم ثم هم لا يتبعون ما جاءت به أنبياؤهم بدليل أنه تعالى قال لهم {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} لا هم اتبعوا أسانيد السلف المنتهية لعلوم الكتاب والسنة ولا اتبعوا ما نطق به أسلافهم من الحق فشابهوا اليهود بهذه الصفة.

نقف هنا والحمد لله رب العالمين.